Journal of Human and Social Sciences (JHSS) • Vol 7, Issue 9 (2023) • P: 116 - 107
https://journals.ajsrp.com/index.php/jhss
ISSN: 2522-3380 (Online) • ISSN: 2522-3380 (Print)

(AL)'s Process from Mythology to Language

Mr. Motasim Basim Ghawadreh
Faculty of Humanities | An-Najah National University | Palestine

Received: 29/05/2023
Revised: 10/06/2023
Accepted: 18/06/2023
Published: 30/09/2023

* Corresponding author: motasim.ghawadreh@najah.edu

Citation: Ghawadreh, M. B. (2023). (AL)'s Process from Mythology to Language. *Journal of Humanities & Social Sciences, 7*(9),107–116. https://doi.org/10.26389/AJSRP.W290523

2023 © AISRP • Arab Institute of Sciences & Research Publishing (AISRP), Palestine, all rights reserved.

• **Open Access**

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license

Abstract: As the title indicates, this research has examined Flectional affix, which hardly a name is devoid of. It is (Al), in order to identify how it reached the language, Based on her first religious biography, and her legendary roots, which refer back to (Eil), the great unifying god of the ancient peoples. It traces the Mythological beginning of (Al)'s Affixation and the evolution of the word (Eil) into Allah.

The search finds:

1- That (Al) definition began its religious life, then entered the language in the form of an adhesive, which tends to define names and remove denunciations from them, but it has until now retained some of its religious meanings.

2- The word (God) was derived - linguistically - from the form (god), which religiously dates back to the word of the Great God (Eil) in ancient thought.

3- The (Al) in the word majesty is derived from the monotheistic god "el", and this is confirmed by their association with the letter (L).

4- That (the) definition occupied a place at the beginning of linguistic words; Based on her religious origin (EIL), which gave her the power to occupy that place.

The research recommends reconsidering the general terms that have reached us in the language dictionaries, by returning them to their religious and mythological origins, from which they emerged.

Keywords: (Al), Mythology and Language.

سيرورة (أل) التعريف من الأسطورة إلى اللغة

أ. معتصم باسم غوادره
كلية العلوم الإنسانية | جامعة النجاح الوطنية | فلسطين

المستخلص: يعالج البحث لاصقة لغويّة، لا يكاد اسمٌ يخلو منها؛ هي (أل) التعريف، فيبتغي التعرُّفَ إلى كيفيّةِ وصولها إلى اللغة، اعتمادًا على سيرتها الدينية الأولى، وجذورها الأسطورية، التي ترتدُّ إلى (إيل) الإله الأكبر الموحَّد عند الشعوبِ القديمة، فيتتبَّعُ المبدأَ الإلهي لأل التعريف، ويكشف تطوُّرَ لفظِ (إيل) إلى لفظ الجلالة الله.

ويتوصَّلُ البحث إلى:

1- أنَّ (أل) التعريف بدأت حياتها دينية، ثمَّ دخلت إلى اللغة على هيئة لاصقة، يغلبُ عليها أن تُعرِّفَ الأسماء وتزيل عنها التنكير، ولكنَّها ظلَّت حتّى الآن محتفظةً ببعض معانيها الدينية.

2- أنَّ لفظ الجلالة اشتُقَّ (الله) -لغويًّا- من صيغة (إله)، التي تعود -دينيًّا- إلى لفظ الإله الأعظم (إيل) في الفكر القديم.

3- أنَّ (أل) في لفظ الجلالة مشتقّة من الإله الموحّد (إيل)، ويُؤكِّدُ ذلكَ اشتراكُهما باللام.

4- أنَّ (أل) التعريف احتلَّت مكانًا في بداية الكلمات اللغوية؛ استنادًا إلى أصلها الديني (إيل)، الذي أعطاها القوّة لتحتلَّ ذاك المكان.

ويوصي البحث بإعادة النظر فيما وصل إلينا من ألفاظٍ عامة، في معجمات اللغة، عن طريق إرجاعها إلى أصولها الدينية والأسطورية، التي انبثقت منها.

الكلمات المفتاحية: "أل التعريف، اللغة، الأسطورة.

مقدّمة:

أكَّد كثير من الباحثين وثاقة العلاقة بين اللغة والأسطورة، والقرابة بينهما، والجذور المشتركة التي تجمعهما؛ فقد رأى (ماكس مولر) أن الإنسان البدائي كان يتحدَّث من خلال الأسطورة لا اللغة(إبراهيم، 1979، 70)، واعترف (هيردر) بالمظهر الأسطوري لجميع التصوُّرات اللفظية(كاسيرر، 2009، 153)، وقال (فشيلنغ) إن اللغة "أسطورة ذاوية" (كاسيرر، 2009، 154)، وذهب (كاسيرر) إلى أنَّهما توأمان عند الإنسان البدائي (كاسيرر، 1961، 199).

وقد نشأت اللغة في رحاب الدين، فانسجمت بنياتها مع الفهم الإنساني للأشياء، وحملت في ثناياها طقوس أصحابها وشعائرهم وعباداتهم، فالكلام كما يقول (هيركليتس) لا بد أن يكون إلهيَّ الأصل (ثورلبي، 1997، 27)؛ ولذا يسعى البحث إلى العودة بأل التعريف إلى سيرتها الدينية الأولى، ومعرفة الجذور التي نبعت منها، أو صدرت عنها لوصل ماضيها بحاضرها.

وحين يقف المرء أمام تراث أسطوري ديني، ويستعين به لفهم تراثه اللغوي العربي، فإنه لا يكون على ضلالة، بل إنه يهتدي إلى طريق صائبة، قد تُمكِّنُه من فهم كثير من الألفاظ، التي شكَّلت مصدرَ شكٍّ عند اللغويين العرب، وكانت بذلك موضع اختلاف، ليس من الممكن الفرارُ منه إلا إليه، وحين يُعوِّل المرء عليه، فإنَّ عليه بدايةً أن يرجع إلى أصل اللفظ المختلف فيه؛ أصلِهِ الديني، وبخاصَّة إذا أصبح اللفظ في ذاكَ الزمنِ مادَّة لغوية، استخدمها الإنسان القديم في قالب لغوي معين، وإن اللغة؛ أيَّ لغة تتطوَّر بمرور الزمن، واختلاف البيئة التي تعيش فيها، وإن كان هذا التطور، في طبيعته، بطيئًا متأنِّيًا (أولمان، 1962، 156).

ومن هذا المنطلق؛ فقد تطور القالب اللغوي لبعض الألفاظ القديمة إلى قالب لغوي جديد، لا يمكن أن نفهم معناه، أو أن نتتبَّع تطوُّره، بدقة، إلا إذا أعدناه إلى أصله الديني الذي انبثق منه، اعتمادًا على ما خلّفتْهُ لنا الأساطير المتعلِّقة به؛ ولهذا أراد أوسنر "أن يبرهن على أن جميع المفردات العامة في اللغة لا بُدَّ من أن تمر من خلال طور أسطوري معين" (كاسيرر، 2009، 83)؛ وتُشيرُ وجهة نظر أوسنر إلى المنشأ الأوَّلي لألفاظ اللغة، المتمثِّل بالمنشأ الديني في أحضان الأسطورة، وهي وجهة نظر، تدعمُ البحثَ، الذي نقصده.

والناظر في طقوس الدين عند السومريين يجد أن الأكاديين ورثوا طقوسهم منها، وأخذوا من السومريين مفاهيم لاهوتهم، وكذلك كانت للكنعانيين نظرة لاهوتية قريبة منهم، لا تبتعد كثيرًا عن تفكيرهم (الحوراني، 1978، 168)، "حتى العرب لم يكونوا منعزلين عن جيرانهم، بل كانوا ذوي صلات وثيقة بالأطراف" (الحوت، 1955، 15)؛ فالتاريخ يشهد أن العرب احتكوا بغيرهم من الشعوب، عندما اخترق المِصريون القدماء والأكاديون بلاد العرب، وهكذا أخذوا من بنيتهم الذهنية اللاهوتية، فعُبِدت آلهة أشورية في اليمن، وأثّرت حضارة الفينيقيين واليونان في اليمنيين، كما ظهر أنه كان للحضارة الآشورية والنبطية تأثير ليس بالقليل على الحجازيين (الحوت، 1955، 15 و16)، "وهذا يشير إلى أن البناء الذهني ذاته الذي أفرزَ العقائدَ وطرائق التفكير السومرية الأكادية أفرزَ ما يماثلها أو بتأثير متبادل معها في أرض كنعان المجاورة" (الحوراني، 1978، 168)، ويشير أيضًا إلى أن البناء الذهني الذي أنتجَ العقائد الدينية الكنعانية أنتج ما يشابهها عند العرب؛ لأنهم ورثوا طرائق تفكيرهم، ومفاهيم لاهوتهم من أجدادهم الكنعانيين.

إذن؛ لا يوجد ميثولوجيا خاصة لشعب من الشعوب دون أن تكون قد أخذت من غيرها، وهذا أساس يدعم دراستنا هذه؛ لأن لفظة الله -وهي هكذا الآن- تدفعنا إلى التساؤل: كيف كانت عند السومريين، وعند البابليين وغيرهم؟ فلا بد أن يكون لهذه اللفظة أساس أو أصل عند أولئكم، ولا بد أن تكونَ قد حملت غير صفة أو اسم، من بيئة إلى أخرى، إلى أن استقرت على اسمها الحالي.

مشكلة البحث

سيتتبّع البحث تطور (أل) التعريف، ويُبيِّن كيفية وصولها إلى اللغة، وذلك بالعودة بها إلى سيرتها الدينية الأولى (إيل)، وتبيان علاقتها بلفظ الجلالة "الله"، ولنفضَّ ذلك الغموض الذي واجه بعض الباحثين، حينَ تعسَّر عليهم فَهمُها، حتّى قال (رينغرين): "لم نتمكن من فهم معنى الكلمة أو مصدرها ومن المتعذَّر شرح أصل الكلمة (إيل) أو جذرها بتأكيد" (كنعان، 1996، 321)، وقال (بوتيرو): "إن المعنى الأصلي لهذا اللفظ غير معروف" (كنعان، 1996، 321)، ويقول (رولنسون): "هناك غموض حول الاسم نفسه الذي يعني ببساطة الله" (كنعان، 1996، 321)، ولذلكم كلِّه يسعى هذا البحث إلى فَضّ هذا الغموض؛ تمهيدًا لإدراك العلاقة القائمة بين "إيل" و"الله"، وانطلاقًا لكشف الجذور الدينية الأولى لِلَازمة "أل" التي اشتركا فيها.

المبدأ الإلهي لِأل التعريف:

لا نستطيع أن ندرك بدايات "أل" التعريف إلا إذا وصلْناها بجذرها الديني الأسطوري، المتمثِّل بالإله الأكبر "إيل"، ومن ثَمَّ نعالجُ الكيفية التي وصلت بها لفظة "إيل" إلى اللغة، وأصبحت إذ ذاك جزءًا منها. ولم نأتِ بلفظة "إيل" عبثًا، وإنما جئنا بها: لوثاقة العلاقة بينها وبين لفظ الجلالة "الله" شكلًا ومعنًى، وتأثيرها الكبير في حياة الناس قديمًا كما سيتبيَّن فيما بعدُ.

وصلَنا ذكرُ الإله الكنعانيّ "إيل"، من نصوص أوغاريت، ومن نصوص العهد القديم العبريّ، التي أخذت مادَّتها من الكنعانيين، وأطلق القدماء عليه صفاتٍ عدَّة، غلب بعضها عليه، وذاب بعضها الآخر، ولكنها اجتمعت كلُّها لتدلَّ على أنَّه إله موحَّد؛ ولا بدَّ ههنا أن نستقصي صفاته؛ رغبةً في كشف أدلّة من أظهروا الائتلاف، مع وصفِ "إيل" إلهًا، كغيره من الآلهة، ومناقشتها نقاشًا يتماشى والتراث الديني الأسطوري؛ لنصل إلى وصفٍ مثبَتٍ ومقنعٍ، للإله الذي أصبح، فيما بعدُ، جزءًا من تراثنا اللغوي.

قبل أن نقول: إن "إيل الإله السامي العربي الأعظم"(عبد الكريم، د. ت، 78)، علينا أن ننظر في قول من ذهب إلى أن "إيل" كان يُعبَد في شخصية القمر(نيلسن، 1958، 215)؛ فقد كان ينظر إليه قبل التاريخ وكأنه إله قمري، له منزلته الخاصة، عند الساميين وغيرهم، وبعد مجيء فكرة التوحيد، أصبح يؤدّي دوره الفلكي، "ومن ثمَّ نجده يتجرَّد من القمر، ويعود إلى حالته الأولى أعني أنه إله شخصي عقلي لا علاقة له بالمظاهر الطبيعية"(نيلسن، 1958، 214)، ويدعم من ذهب إلى ذلك فكرته بأمثلة عقلية، من النقوش العربية القديمة؛ فالإله "إل" يقابل الإِلَهة "اللات"، والأخيرة إِلَهة شمسية، وهي زوج الإله "إل"، ولذلك جعلوه إلهًا شخصيًّا، وعثر أولئك على بعض الأعلام العربية الجنوبية، التي جعلوها دليلًا على قمرية الإله "إل"، مثل (ال ذرح) أي الله يضيء، (ال شرح) أي الله يتلألأ، (ال يبع) أي الله يشع ...، وعثروا على أسماء صفوية أيضًا؛ مثل (ظهر ال)، (عبر ال)، (سمر ال)، بمعنى أنه نور القمر ...، وجعلوا ذلك دلالة على أن الإله "إل" أو "إيل" كان يعبد في شخصية القمر (نيلسن، 1958، 215).

وليس من الدقّة أن تُجعَلَ بعض الأسماء القديمة دليلًا على أن "إيل" إله قمري فقط؛ لأنه "بمقارنته مع الأسماء اللاهوتية المركبة الأخرى يتَّضح أنه كان في الأصل أحد الآلهة المعروفة"، التي تميّزت من غيرها، بلهَ مقارنته مُركَّبًا مع أسماء ليس لها علاقة بالقمر تؤكِّد ما ذهبنا إليه؛ لأنها أكثر بكثير من تلكم الأسماء التي جُمِعت بصعوبة بالغة، ثمَّ عُدَّتْ، على قلّتها وندرتها، حُجّة على قمرية الإله الأكبر"إيل" البتةَ؛ فلم تقصر الأسماء المضافة أو المنسوبة إلى "إيل" دلالتَها على قمريته، بل كان لها أيضًا مدلولٌ في معتقدهم الديني، وهو "التقرب من السيد العالي (الله) والتيمّن به، ولها معانٍ جميلة وسامية ودلالات عميقة تشي بالصفات الكمالية في المحبة والرحمة والحنان والرأفة والقابلية للعطف والاستجابة للتوسُّل والشعور بالواجب" (كنعان، 1996، 295)، ومن تلكم الصفات التي تؤكِّد ما ذهبنا إليه: "أوس إيل" وتعني إيل يعطي، "أمر إيل" وتعني إيل يشاء أو يريد، "ايلو أرش" تعني إيل يساعد، "ايل ارش" بمعنى إيل يساعد، "برك إيل" بمعنى إيل يبارك، "إيل بشر" بمعنى إيل يُخلّص، "بدر إيل" بمعنى إيل يبهج، "بلط إيل" بمعنى إيل ينقذ أو ينجي، و"بجل إيل" تعني إيل يرضي ... (كنعان، 1996، 296- 297). وهناك الكثير من الصفات التي لحقت بإيل الإله الأعظم لا داعي لذكرها كلها، فالمهم أن تلكم الصفات، في مجملها، تُبيِّن أن "إيل" هو المانح والمخلّص والمُنجي والمكافئ، وهو الحامي للبشر كلهم؛ فهو يعطف عليهم "تيد إيل"، ويُسعدهم "جد إيل"، ويقوّيهم ويعزِّز شدتهم "جبر إيل"، ويعطف عليهم "حز إيل"، وهو من يَشفيهم "حلم إيل"، وهو من يسرهم ويبهجهم "خبص إيل"، وهو من يرعاهم "رعو إيل" (كنعان، 1996، 298- 300)، فهل تدل تلكم الأمثلة على إلهٍ شخصي أم على إلهٍ لهُ صفاتٌ عظيمة تُنْبِئ عن ألوهة مطلقة في أذهان مَنْ وصفوه بها؟

وعند قراءة الدلائل، التي تشير إلى قمرية الإله الأكبر "إيل"، فقد يُجنَحُ إلى التعامل معه، وكأنه إله شخصي، لا يختلف كثيرًا عن غيره من الآلهة، إن جيزَ تناسي صفاته، التي تؤكِّد تميُّزه عنها كلها، ولكنّ وصفه بذلك لا يُخالِف حقيقةَ أنه إله موحَّد؛ لأن قمريّته لا تتعارض مع كونه إلهًا مطلقًا، بل تؤكِّدُها؛ لأن القمر كان الإله الأكبر في الذهنية القديمة، ولهذا اندمجت فكرة القوة والرهبة والعظمة والقدرة بالعلو والسماء في الذهن القديم (الحوراني، 1978، 157). وهذا يجعل قمريّته من صفاته الرئيسة، التي تُثْبِت علوّه، وتنسجم مع ألوهيته المطلقة، كما أنَّ "صيغة إيل لم تكن في العصور القديمة اسمًا، بل كانت الصفة التي أطلقها الأكاديون في البادية السورية على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء [العالية]، ولم تعرف اسمًا للقوة العالية، أو ما نطلق عليه الله في البداية، وإنما كان في أذهانهم مفهوم عن القوة العالية وعبروا عنه بإيل" (كنعان، 1996، 322)، ولمّا تحوَّلت (إيل)، في صيغتها إلى الله، تحولت إلى اسم، تبَّنته الديانات التي جاءت فيما بعد، وأخذته الشعوب المختلفة عن تلكم الديانات التاريخية (كنعان، 1996، 322).

ولم يكن "إيل" إلهًا قمريًّا وحسب، بل كان إلهًا مطلقًا عند الساميين وغيرهم، فأن نجد إلى جانبه إلهة أنثى، لا يصرفنا عن حقيقة كونه الإله الأكبر، إذا علمنا أن الاجتهادات اللاهوتية قد استفادت من حرية الفكر الديني، فأثّر فيها؛ ولذا وجدنا إلى جانب الإله السومري الأكبر "أنو" الإلهة "آنتو" كقرينة أنثى له، وهذه القرينة لا تعد حجَّة، تمنعنا من تأكيد الألوهية المطلقة لإيل، وإن كانت له قرينة أنثى (أشيرة)؛ لأنها جاءته من تأثير تلكم الاجتهادات اللاهوتية التي قرنت كل إله بإلهة، وهذا لا يغيِّر من جوهره شيئًا على الإطلاق؛ لأنه لم يكن للإلهة المقترنة به مسؤوليةٌ مستقلّة، بل كانت مسؤوليتها منفصلةً عن مسؤوليته (الحوراني، 1978، 166).

وأن يُجعَل شيب لحية "إيل" دليلًا على أنه طاعن في السن (فريحة، 1980، 29)، خطل شنيع؛ لأنَّ هذا الوصف ينحدر به من الألوهة إلى البشرية، والحقيقة أن شيب لحيته لم يكن إلا دليلًا على حكمته العظيمة؛ لأن شيبها ارتبط في النصوص القديمة بحكمته، ويؤكد هذا ما ورد في ملحمة البعل وعناة على لسان "أشيرة" عندما شكرت "إيل"، لموافقته على بناء قصر لبعل (فريحة، 1980، 29):

"عَظُمْتَ أيها الإله، إنك حقًّا حكيم

شيبُ لحيتك قد زادك علمًا"

ويتَّضح أنَّ "إيل" صاحب الكلمة العليا في المواقف الصعبة، التي تتطلَّب العودة إلى تعيين المسؤوليات، وتقرير المبادئ، وفرض القرارات، فإن كان هناك تعدد للآلهة فهو أبو الآلهة كلها (روكينغ، 1987، 232)، وهذه الآلهة تنزعج على البشر وتضحّي لأجلهم، بنزول بعضها إلى العالم الأسفل لتستمرّ حياة الإنسان (السواح، 1980، 249)، وأخذت صفاتها من "إيل" كبير الآلهة وخالقها؛ ولهذا لقب بأبي البشر (روكينغ، 1987، 233). ويتضح أن "إيل" تعود إليه الآلهة جميعها عند تقرير المبادئ وتنفيذها، فإليه دائمًا مآلها، وعند قدميه مرجعها؛ فهذه الإلهة "عناة" تتقرّب من الإلهة "أشيرة" وأبنائها؛ لتتوسّط للإله "بعل" عند "إيل"؛ للحصول على تفويضه ببناء قصر لبعل، ولم يتمَّ بناؤه إلا بعد موافقة "إيل"، الذي وصلت أوامره إلى الصانع الإلهي ليباشر في بناء القصر (جوردون، 1974، 179-181)، ولم تحصل عناة على قوس الصياد الشاب "أقهات" إلا بعد موافقته (روكينغ، 1987، 234)؛ فقد ورد في أسطورة "كارِتْ" (فريحة، 1980، 313):

"اتجهت نحو إيل عند نبع النهرين

وسط مجرى الغمرين ودخلت حمى إيل

وجاءت قصر الملك أبي السنين

وعند قدمي إيل سجدت، انحنت وسجدت له

وكرّمته ثم اغتابت أقهات البطل"

ومع أن "إيل" يتدخّل في كل كبيرة وصغيرة، ولا يمكن أن يحدث شيء دون الرجوع إليه، إلا أنه يجد بعض العصيان لأوامره؛ فلم تسجد له رسل "يم"، فقد ورد في النص الأوغاريتي (جوردون، 1974، 168):

"عند قدمي إيل لا يخرون

ولا يركعون في الاجتماع المجتمع"

وهكذا؛ يتَّضح أن "إيل" يمثل الثالوث اللاهوتي: السماء، والأرض، والبحار، ولهذا قالوا :"إرثه في الحكم تقاسمته ثلاثة آلهة هي بعل وكان نصيبه حكم السماء والأرض، وموت عالم الأموات تحت الأرض، ويم عالم المحيطات والبحار"(روكينغ، 1987، 236)، والحقيقة أن هذه الآلهة الثلاثة لم تكن سوى مظاهر لألوهة مطلقة، وكل صفة من صفات الألوهة تتمثّل بإله معروف، ومجموع الصفات يكوّن الإله الممجّد المقصود، وهكذا نرى شمولية اللاهوت الأكبر "إيل" للآلهة القومية للشعوب والقبائل المختلفة، ونراه بأسماء تختلف لاختلاف اللغة بين هذه البيئة وتلك، فإيل هو الإله المطلق الكامل عند الكنعانيين، ويعرف بآن عند السومريين وإيلو عند الأكاديين (الحوراني، 1978، 167).

وكان لكل قبيلة، إن جاز القول، إلهها الخاص، الذي تتوجَّه إليه بالعبادة، فالزلازل والبراكين والأعاصير وتتابع الفصول وحركة الكواكب والأجرام السماوية كانت عند الإنسان القديم قوًى يتجسّد كلٌّ منها بإله يسيطر عليها، ولكن الحقيقة أن تلكم الآلهة لم يرَ الإنسان فيها إلا وجوهًا مختلفة، للألوهة الشمولية نفسها في قدرتها وقوتها ومعرفتها الكلية (السوّاح، 2001، 191)، ولم تكن "إلا هيئةً أراد الإله المطلق أن يتجلى بها، لوقت طال أم قصر، وعلى ما تقتضيه طبيعة الأحوال" (السوّاح، 2001، 192).

إذن؛ صحيح أن الآلهة تعدَّدت عند الإنسان القديم، إلا أنه كان يجد فيها وسيلة توصله إلى الإله الأعظم "إيل"، فعندما "كان يرتفع شأنُ إلهٍ قومي فيتقدَّم عليه (أي على الإله الأعظم)... فإن هذا التقدُّم لم يكن سوى فورة محلية لتحقيق أغراض سياسية" (الحوراني، 1978، 158)، وكان "إيل" يتربّع قمة مجمع الآلهة الكنعانية في الأساطير الأوغاريتية" (روكينغ، 1987، 233)، فهو –وإن تعدّدت الآلهة- يظل الإله المطلق بينها، ويتردَّد اسمه دائمًا لوصف الألوهة المطلقة، وهو "اسم عام لفكرة الألوهية (روكينغ، 1987، 231)".

ما أردنا التوصل إليه أن "إيل" واحد في اعتقاد القدماء، عبدوه ووحدوه، وأنه ليس في النصوص التي وصلتْنا عنهم، كما يقول جورجي كنعان، أيةُ إشارة إلى أن فكرة تعدُّد الآلهة قد ظهرت في أذهانهم، وما يزعمه المؤخرون من تعدُّد الآلهة إن هو إلا صفاتٌ متنوّعة له، تبعًا لتنوُّع البيئات والألسنة، حتى وإن كان هناك بعض القوى التي أُلّهت، فإننا نضعها في الإطار الوثني الخارج على الألوهة المطلقة (كنعان، 1996، 329).

وانطلاقًا من ذلك؛ سيحاول الباحث أن يتتبّع سيرورة "إل" أو "إيل" –الإله الموحد من الفكر الأسطوري القديم إلى اللغة؛ لتفسير كيفية وصوله –في اللفظ والاعتقاد- إلى لفظ الجلالة "الله".

التطوُّر اللغوي للإله الأكبر "إيل":

لقد كان "إل" الإلهَ الأعظم عند الشعوب القديمة، ولما استُعمل لوصف الألوهة المطلقة تردَّدَ في النقوش القديمة صيغٌ كثيرة له، كانوا يضعونها إلى جانب أسماء المناطق والملوك وغيرهما، إضافةً أو نسبةً؛ ولذا فإن الأسماء التي رافقتها صيغة "إل" بلغت الآلاف، وكثر استعمالها، ولم تتعرَّض إلى الزوال أو الاستبدال من حيث المدلول، وكانت "واسعة السلطة في يوميات الناس وعلاقات تعاملهم وفق الذهنية اللاهوتية المبدئية" (الحوراني، 1978، 175)، وإن كان ذلك الأمر كذلك، فلا يعقل أن تكون لفظة "إل" لفظة عادية، ولا بد أنه كان لها تأثير كبير في حياة الناس؛ ملوكهم وعبيدهم، كبيرهم وصغيرهم، ولا بد أن يكون إسباغ التشخيص عليه "هو حركة تطوُّر وانتقال من مرحلة ذهنية إلى أخرى أكثر مما هو تحوُّل من مفهوم لاهوتي إلى آخر" (الحوراني، 1978، 171).

ولكثرة استخدامهم هذه اللفظةَ، وشيوعها على ألسنتهم، طرأ عليها تطوُّرات لغوية وصوتية، أدَّت إلى انتقالها من صيغة لغوية إلى أخرى، بما يتماشى مع ألسنة اللاحقين، وبصرف النظر عن مسمّياته الأُخَر في اللغات المختلفة؛ فالسومريون، على سبيل المثال، أطلقوا عليه صيغة "آن"، ولكن البقاء كان لصيغة "إيل"، التي شملت، غيرَ العربيتين الشمالية والجنوبية وسوريا الطبيعية، بلادَ الإغريق، فقد كان لها سطوة كبيرة، امتدت إلى لغات الساميين ولغات غيرهم، فلا تكاد تخلو لغة قديمة منها (كنعان، 1996، 307).

لقد اقترنت صيغة "إيل" بكثير من الأسماء الأكادية؛ مثل (يحيى إيل)، (مجد إيل)، واقترنت بأسماء الملوك في تاريخ حوض النهرين؛ مثل (سمو إيل)، (جمل ايليشو)، ووردت في رسائل حمورابي ونقوشه أسماء كثيرة اقترنت بها صيغة "إيل"؛ مثل (ايلي أقشم)، (ايلي بني)، ووردت في الأسماء المقتبسة من تراث بابل؛ مثل (عبد ايل)، (رعو ايل)، وكذلك وردت في الأسماء التي جاءت في المراسلات الملكية في الإمبراطورية الأشورية؛ مثل (أمر ايلو)، (برك ايلو)، وهناك الكثير من الأسماء الأمورية اقترن بها، ووردت أيضًا في الساحل الكنعاني، وفي قرطاجة، وفي صيدون، وصور، ومصر، وإسبانيا، وقبرص، ورودس، وإيطاليا، وأثينا وغيرها من المناطق (كنعان، 1996، 188- 191).

وعُثِر في كثير من النقوش على أسماء، اقترنت بها صيغة "إيل"، كتلكمُ النقوشِ التي اكتشفت في مناطق الصفويين؛ مثل (ايل فور)، (بني ايل)، وفي النقوش التي اكتشفت في سوريا الجنوبية والوسطى، وفي مناطق الأنباط، وكذلك النقوش الثمودية والآرامية، ونقوش حوض الأردن، ولحيان، والمدينة المنورة، فقد عثر فيها كلها على كثير من الأسماء التي اقترنت بصيغة "إيل"، ولا مجال هنا لذكرها كلها (كنعان، 1996، 191- 200)، وإنما جئنا بها لتكون علامة على انتشار صيغة "إيل" في مساحات لغوية كثيرة، ولإثبات سيطرتها لغويًّا، ودلاليًّا على صفات الألوهة المطلقة، التي كانت في هذه البيئة أو تلك، ثم ذابت تلكم الصفات لضعفها، وانتصرت في النهاية صيغة "إيل"، وفرضت نفسها على البيئات جميعها، ولعل انتصارها هذا هو سبب انتصار لام التعريف، في اللغة، على النون أو الهاء، وبالتالي استخدمت العربية اللامَ لقوتها اللاهوتية، التي نبعت من "إيل".

والهدف من هذا المبحث هو تتبّع التطور الذي طرأ على كلمة "إيل" حتى وصلت إلى "الله" في اللفظ اللغوي، ذلك التطور الذي نلحظه -بداية- في تغيُّر الصيغ التي ورد فيها، فقد ورد في النصوص الأوغاريتية بصيغة "إل" (الغول، 1997، 87)، وأخذ يتطور إلى صيغ أُخَر، مثل: "إيلو"، و"إيلي" (كنعان، 1996، 188)، وهكذا نجد أنَّ نُعوتَ هذا الإله تعدَّدت وتنوَّعت من بيئة إلى أخرى، بل إننا نجد نُعوته تتعدَّد في داخل البيئة الواحدة، كما هي الحال في بيئة اللحيانيين (كنعان، 1996، 189- 200).

أما إدراك تطوّر صيغة "إيل" إلى "الله" فقائم على التخمين، ولذلك اختلف فيه الدارسون، وكانت تفسيراتهم له مختلفة لاختلاف الاستنتاج الذي وصل إليه كلُّ واحد منهم، بيد أن ما ينبغي أن يُتّفق عليه هو أن اسم الله تطوَّر من صيغة "إيل"، التي امتدَّ أثرها إلى عصر صدر الإسلام، وظلَّت تدلُّ على الألوهة المطلقة فيه؛ فقد روي عن أبي بكر الصديق أنه قال لما سمع سجعَ مسيلمة: "ما خرج هذا من إل" (علي، 1993، 6/ 318 و319).

فسّر جورجي كنعان (كنعان، 1996، 308 و309) ذلك التطوُّر من منطلق صوتي؛ فكان رأيه أنه يكثر نداء "إيل" للاستغاثة، فجرى له ما جرى لكلمة "سيّد"؛ فقالوا: وإيلاه في "إيل"، كقولهم: واسيّداه في "سيّد"، ورأى أن الألف أمدُّ أصوات المد واللين، وأنها للإطلاق؛ لأنها إشباع للفتحة التي قبلها إذا مد الصوت بها، ورأى أن الهاء هي هاءُ السكت، وهي قريبة في المخرج من الألف التي سبقتها، وأحدثتْ وجودَها صوتيًّا، وهذا يؤكده نطقنا الآن لأيَّة كلمة نتهي بألف، فإن مددنا الصوت بها، فإننا نصل إلى صوت الهاء الضعيف بسبب عدم ذبذبة الوترين الصوتيين عند النطق به، فتخلَّص الناطقون بصيغة "واإيلاه" من الياء لاستثقالها في النطق، فأصبحت "يا إلاه"، واعتقد أنهم لم يستسيغوا المد المفتوح بعد همزة مكسورة، ولهذا تركوا الهمزة وحدها، وحوَّلوا كسرتها لامًا، فالتقت لامان متحركتان، فأُدْغِمتا، فقالوا: يا ألاه/الله.

وفسّر يوسف الحوراني (الحوراني، 1978، 177 و178) هذا التطوّر اعتمادًا على رسوم الإله "مارتو" في نقوش السلالة البابلية الأولى، فهذا الإله كان يأتي اسمه مسبوقًا بإشارتين لاهوتيَّتَيْنِ (أل أل)، وهاتان الإشارتان تحوَّلتا إلى صيغة "الإله"، التي أصبحت فيما بعد "الله" بالإدغام، ورأى أن الإشارة الأولى للألوهة أصبحت أل التعريف، التي غدت توضع، بعد ذلك، قبل إشارة الألوهة الثانية لتفيد

الألوهة المطلقة، ورأى أن كلمة الله تتضمّن بطبيعة تركيبها معنى التوحيد المطلق؛ لأنها هي إدغام في كلمة "الإله"، التي جاءت من إشارتين لاهوتيتين كما أوضحنا آنفًا.

وأشار نيلسن (نيلسن، 1958، 211 و212) إلى كيّفية وصول "إل" وتطوّرها إلى الله، فأشار إلى أن (الإله) (هـ ال) تختصر في (هـ ل هـ)، فالهاء الواردة هاهنا هي أداة التعريف العربية الشمالية، وليست أداةً للنداء، وهكذا تصبح صيغة "هـ ال" (ال ال)، وتصبح صيغة "هـ إله" (ال إله) في العربية الشمالية، ويقابلها في العربية الجنوبية (إله ن)، التي تصبح (ال إله)؛ لأن النون هي أداة التعريف في العربية الشمالية، وتطوّرت هكذا إلى الله، دون أن يشير إلى كيفية تطوّرها، ولكن نفهم ضمنًا، من توضيحه هذا، أن صيغة (هـ إله) أو (إله ن) تطورت في اللفظ، فيما بعد، إلى لفظ الجلالة (الله)، وهو اكتفى بالإشارة إلى أن عُرف، فيما بعد، بـ"الله"، علمًا أنه أكّد أن الإله الموحَّد كان يُطلق عليه "إل" أو "إله"، ولكنه لم يُشر إلى أن "إل" تطورت إلى "إله"، ومن ثمَّ تطورت "إله" إلى "الله"، ولعله لم يُعنَ بتتبُّع تطورها بالقدر الذي أراد أن يوصله من أن "إله القرآن يتّفق تمامًا من ناحية حقيقته مع إله النقوش العربية القديمة" (نيلسن، 1958، 212).

اختلفَ اللغويون في لفظة الجلالة (الله) اختلافًا شديدًا رغم كثرة تداولها في الكلام؛ فالسيوطي يقول في اختلافهم فيها: "فإن بعضهم زعم أنها عبرية، وقال قوم إنها سريانية، والذين جعلوها عربية اختلفوا هل هي مشتقّة أو لا؟ والقائلون بالاشتقاق اختلفوا اختلافًا شديدًا، ومن تأمّل أدلّتهم في تعيين مدلول هذا اللفظ علم أنها متعارضة، وأن شيئًا منها لا يفيد الظن الغالب، فضلًا عن اليقين"(السيوطي، 1999، 87)، وقد يكون اختلافهم هذا نابعًا من عدم إدراكهم الأصلَ اللغوي الأسطوري، الذي تطوّر منه لفظ الجلالة الله، ليكون بعدها على هذه الهيئة، التي نراها اليوم.

وتخبَّط اللغويون والنحويون في اشتقاق كلمة الله، واختلفوا فيه؛ أهي مشتقة أم لا؟ يؤكِّد بحثنا اشتقاقها من لفظة "إله"، التي تطورت من الإله الموحد "إل"، وهكذا يتّضح عدم معرفة القدماء، أو لنقل عدم اهتدائهم، إلى أصله الأسطوري؛ فهذا أبو حيان الأندلسي يقول: "والله علم لا يطلق إلا على المعبود بحق مرتجل غير مشتق عند الأكثرين" (الأندلسي، 1978، 14/1)، والذين قالوا باشتقاقه اختلفوا اختلافًا شديدًا فيما بينهم؛ فبعضهم قال إنه مشتق من لاه يليهُ أي ارتفع، وبعضهم قال إنه مشتق من لاه يلوهُ أي احتجب واستتر، وآخرون رأوا أنه مشتق من أله يأله إذا فزع من أمر نزل به، أو من أله بمعنى تحير عند بعضهم، أو بمعنى سكن كما قال المبرد، وذهب غيرهم إلى أنه مشتق من وَلِهَ، أي طرب[1]، وخلافهم فيه جعل الزجاج يكره أن يذكر جميع ما قاله النحويون في اسم الله، تنزيهًا له -جل وعز- (الزجاج، 1997، 43/1).

وقد تكشّفَ أن لفظ الجلالة "الله" اشتق -لغويًا- من صيغة "إله"، التي جاءت من لفظ الإله الأعظم "إل"، ولم تشتقّ من لاهَ، ولا من ألهَ، بل إننا نستطيع القول: إن تلكم الصيغ التي تحمل في معانيها صفةً من صفات الألوهة المطلقة، إنَّما هي مشتقة من إله أو من الله؛ لأنَّ معانيها الجزئية تدل، في مجموعها، على معنًى كليّ متكامل كامل، لا يعتريه أي نقص، أي أنها تدل على الله، الإله المعبود بحق، ومن هنا لا نقف إلى جانب من قال: "وليس هو (يقصد لفظ الجلالة الله) من الأسماء التي يجوز منها اشتقاق فعل كما يجوز في الرحمن والرحيم" (الفراهيدي، 1982، مادّة أله)، بل إنَّنا نرى أنَّ الأفعال (أله، ووله، وتأله، واستأله) جميعها مشتقٌّ من اسم "الله"، فبماذا يختلف اشتقاق تأله واستأله من الله عن اشتقاق استحجر واستنوق من الحجر والناقة؟! ونشير هنا إلى أن لفظ الله في الأصل كان وصفًا، كغيره من الأوصاف، "لكنه لما غلب عليه بحيث لا يطلق على غيره أصلًا صار كالعلم ويردُّهُ امتناعُ الوصف به" (أبو السعود، 1928، 11/1)، أي لا يجوز أن نصف به أحدًا غيرَهُ، نقول: فلان الكريم والعظيم، وجائز هذا الوصف بالمطلق، ولكن لا يجوز لنا أن نقول: فلان الله؛ لأن لفظ الله اسم لا يطلق إلا على الرب المعبود بحق، وليس هو وصفًا يصحُّ لغيره، علمًا أن ثَمَّ آلهةً، كان الناس يعبدونها قديمًا، وما زالت عبادتها قائمة عند بعض الناس حديثًا، ولكنها عبادة بغير حق، فالمستحق للعبادة هو الله -سبحانه وتعالى-، "وكل ما اتخذ من دونه معبودًا إلهٌ عند مُتّخذه" (ابن منظور، 1997، مادّة أله).

ونحن بصدد الحديث عن كيفية التطور اللغوي لكلمة الله، ينبغي أن ننظر في رأي اللغويين والنحويين فيه؛ فاللغوي العربي الذي أشار إلى تطوُّر الله من إله هو ابن منظور، إذ قال: "وروى المنذري عن أبي الهيثم أنه سأله عن اشتقاق اسم الله تعالى في اللغة فقال: كان حقه إلاهٌ، أُدخلت الأَلف واللام تعريفًا، فقيل أَلإلاهُ، ثم حذفت العرب الهمزة استثقالاً لها، فلما تركوا الهمزة حَوَّلوا كسرتها في اللام التي هي لام التعريف، وذهبت الهمزة أَصلًا فقالوا أَلِلاهٌ، فحرَّكوا لام التعريف التي لا تكون إلاَّ ساكنة، ثم التقى لامان متحركتان

(1) للاطلاع على اختلاف اللغويين والنحويين في اشتقاق كلمة الله، يُنظر: الأندلسي، تفسير البحر المحيط 14/1و15، وأبو السعود، محمد العمادي: كتاب تفسير العلامة أبي السعود، دار العصور للطبع والنشر، الظاهر -مصر، 1928، 10/1و11، وابن كثير، أبوالفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، 1966، 73/1. واللسان "أله"، والفيروزآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط8، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2005، مادة أله، وابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص (باب في حذف الهمز وإبداله)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، 150/3، وغيرها كثير.

فأدغموا الأُولى في الثانية، فقالوا الله" (ابن منظور، 1997، مادّة أله)، ثم فسَّر هذا التطور قائلًا: "والله أَصله إلاهٌ، على فِعالٍ بمعنى مفعول، لأَنه مأْلُوه أَي معبود، كقولنا إمامٌ فِعَالٌ بمعنى مَفْعول لأَنه مُؤْتَمّ به، فلما أُدخلت عليه الأَلف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته في الكلام، ولو كانتا عوضاً منها لما اجتمعتا مع المعوَّض منه في قولهم الإلاهُ" (ابن منظور، 1997، مادّة أله)، وهكذا نلحظ أن ابن منظور لم يهتدِ إلى الأصل الذي جاءت منه صيغة إله، إلا أنه أشار إلى أن هذه الصيغة، أعني الإله تطورت، من وجهة نظره، إلى الله، بعد دخول أل التعريف عليها.

يُصِرُّ ابن سيده أن الله علم أصله مأخوذ من إله، ويرى أنه من يقول بغير ذلك فهو مخطئ من وجهين؛ أحدهما أن كل اسم علم لا بد أن يكون له أصل، تطوَّر منه، والآخر أن أسماء الله كلها صفات إلا هذا اللفظ، فإنه لا يوصف به غيرُه (ابن سيده، 1996، 216/5)، ولكنه لم يهتدِ كذلك إلى لفظ "إل"، الذي جاءت منه صيغة "إله" فيما بعد.

وبعد تتبُّعنا للتطور اللغوي لكلمة "الله"، تبين لنا أن اللغويين أصابوا شيئًا منه، وغاب عنهم شيءٌ آخر، فقد أدرك بعضهم أن قولَنا "الله" تطوّر من الإله، ونتَّفق معهم في ذلك، وإن كنا نخالفهم في أصل اشتقاقها، لعدم إدراكهم أنَّها ترتدُّ إلى لفظة "إيل"؛ الإله الموحد قديمًا، وكان اجتهادهم بحاجة إلى الاطّلاع على الدرس الأسطوري، الذي يعرّفنا بأصول كثير من الكلمات، التي غابت في خضم التأويل، وبخاصة إن كانت تلكم الأصول لها علاقة بالدين والألوهة.

أل التعريف في لفظ الجلالة:

يتجلّى، بعد كشف اشتقاق لفظ الجلالة، أنَّ "أل" التي التصقت ببدايته، إنما هي همزة الإله الموحّد "إيل"، أمّا الكسرة التي على الهمزة، فتحوَّلت لامًا، فالتقت لامان، وأُدْغِمتا، فقالوا: الله؛ وقيل: إن (أل) التي اتّصلت بلفظ الله المكون من إشارتين لاهوتيتين (أل أل)، إنما هي الإشارة الأولى للألوهة، في حين عُدَّت الإشارة الثانية هي الدالة على الألوهة المطلقة؛ وهكذا ندرك أن الهمزة في لفظة الله مأخوذة من الهمزة في لفظة "إل"؛ الإله الموحد قديمًا، وبذلك نصل إلى أن (أل) في الله ليست أل التعريف، وإنما هي همزة "إل" واللام المحولة عن الكسرة، أو هي الإشارة اللاهوتية الأولى من لفظة "الله".

والمطّلع على آراء اللغويين والنحويين في "أل" المتَّصلة بلفظ الجلالة، يجدها كثيرة ومتنوعة، اختلفوا فيها، ولم يجتمعوا على رأي واحد، فقد قيل إن أصل الكلمة لاه، فدخلت عليها الألف واللام للتعظيم (ابن كثير، 1966، 36)، وقيل: "أل" في الله، إذا قلنا أصله الإله، قالوا للغلبة (الأندلسي، 1978، 15/1)؛ لأنه لا يطلق على غيره لاستحقاقه له وحده، لا يشاركه فيه أحد، ورأى كثير منهم أن "أل" في الله هي عوض من الهمزة، على قول من جعل أصله إلاهًا، وحذفت الهمزة، كما يقولون، اعتباطًا وليس للنقل(المرادي، 1983، 199)، وذهب بعض النحويين، إلى أن "أل" في الله للتفخيم والتعظيم(المرادي، 1983، 200)، ويذهب كثير من النحويين إلى أن اللام في "أل" هي التي للتعريف، وزيدت عليها ألف الوصل، وربّما لا تكون همزة وصل، ويدعم ذلك أن الهمزة، كما وضحنا آنفًا، هي همزة "إيل" أو "إل"، ومن جهة أخرى أنَّ "أل" في الله ليست للتعريف كما يذهبون، وإنما هي إشارة لاهوتية أولى في اسم الله.

ولم يهتدِ اللغويون القدماء إلى ذلك حين اعتقدوا تجويز نداء الله على اعتبار أن "أل" فيه عِوَضٌ عن الهمزة، وأنها للتعريف؛ ولتوضيح رأيهم، لا بد من تناول بعض آرائهم؛ قال سيبويه: "واعلم أنَّه لا يجوز أن تُناديَ اسمًا فيه الألف واللام البتَّة؛ إلا أنَّهم قد قالوا: يا أللهُ اغفر لنا، وذلك من قِبَل أنه اسم يلزمه الألف واللام لا يفارقانِه، وكثر في كلامهم" (سيبويه، 1988، 195/2)، ورأى أن أل هي عوض من الهمزة، التي حذفت عند دخول الألف واللام على "إله" (ابن سيده، 1996، 5/ 218)، ومن هذا المنطلق جوزوا "قطع الهمزة الموصولة الداخلة على لام التعريف في القسم والنداء، ولذلك جاز لهم أن يقولوا: أَفَأَللهِ لَيَفعَلَنَّ، ويا أللهُ اغفر لي"(ابن منظور، 1997، مادّة أله)، ودافعوا عن فكرتهم هذه، وبدّوا ما سواها وردّوه؛ فمن قال إن قطع همزة "أل" بسبب لزوم الحرف، ردّوا قوله هذا؛ لأنه يوجب أن تُقطعَ همزةُ الذي والتي، ومن قال إنها قُطعت لكثرة الاستعمال ردّوا عليه بأن ذلك يوجب قطع الهمزة أيضًا في غير هذا ممّا يكثر فيه استعمالُهم، ومن قال إن الهمزة قطعت لكونها مفتوحة، فقوله هذا مردود عندهم؛ لأن ذلك لم يجُزْ في ايمُ الله، وايمن الله، وايم وايمن كلاهما مفتوح الهمزة، ولم يجُزْ أن تقطع الهمزة فيهما إطلاقًا(ابن منظور، 1997، مادّة أله)، على أننا نجد منهم مَن رفض أن تكون أل عوضًا من الهمزة في إله؛ فقالوا: "لو كانتا عوضًا منها لما اجتمعتا مع المعوَّض منه في قولهم الإلاهُ"(الجوهري، 1982، مادة أله).

وهكذا؛ يتبيَّنُ أنَّ اللغويين تخبَّطوا في "أل"، التي في الله، ولم يجدوا إجابة شافية فيما ذهبوا إليه، ولكنْ بالاهتداء إلى أن "أل" في الله، إنما هي إشارة لاهوتية أولى من الله (أل أل)، استُخدمت لأغراضٍ تعظّم الإله الموحَّد، الذي يتمثّل في الإشارة اللاهوتية الثانية؛ يتبيَّن أن الهمزة في أل، إنما هي همزة "إل"، أي همزة الإشارة اللاهوتية الأولى؛ ولهذا جاز قطع تلك الهمزة بعد النداء والقسم؛ لأنها في الأصل همزةُ قطع، وليست همزةَ وصل كما ذهب أكثر النحاة(الزجاج، 1997، 43/1)، فجاز أن يقال: يا أَلله، بقطع الهمزة، ولعل ابن جني اهتدى إلى أن "همزة أل ليست بهمزة وصل"(ابن جنّي، 2007، 16/2)، ولكنه لم يهتدِ إلى السبب الحقيقي، ومع ذلك مال الناطقون باللغة إلى وصل الهمزة في الله؛ تحقيقًا للسهولة النطقية، فالإنسان يحاول دائمًا تلمُّسَ أسهل السبل في نُطْقِهِ أصواتَ لغتِهِ، ولما كان وصل

الهمزة أسهل من قطعها، ولما كثر استعمال لفظ الجلالة في كلامهم، وكان أحدهم ينطق به أكثر من نطقه باسمه، حينئذ وصَلوا الهمزة، وفرّوا من قطعها.

ويمكننا أن نفسِّر سبب قطع أل في الله عند ندائه، من خلال توجيه آخرَ: أنَّ الهمزة في "أل" التي في الله، هي همزة "إيل"، وكسرة تلك الهمزة تحولت لامًا –كما عرفْنا- وهكذا ندرك أيضًا أن همزة أل فيه همزةُ قطع، لأنها مأخوذة من همزة "إيل"، ولهذا السبب جاز في اسم الله ما لم يجُزْ في غيره من الأسماء، فقد جُوِّزَ لنا أن ننادي الله بأداة النداء (يا)، رغم أنه يبتدئ بالألف واللام.

وذلكم كلُّهُ يؤكّد أن "أل"، التي سمّاها اللغويون والنحويون بأل التعريف، بدأت حياتها إلهيّة الأصل، ليس للتعريف نصيب منها، ولكنها أصبحت لازمة في اسم الله، لا تفارقه، وظلَّت حتى الآن محتفظةً بإلهيَّتها، ودالّة على "إيل"، وآثرت أن تكون في بداية لفظ الجلالة؛ لتدل على ألوهيته المطلقة، التي لا تغيب عن أحد من المخلوقات، وفي نهاية هذا المبحث نريد أن نشير إلى أننا عَنْوَنّاهُ بأل التعريف في لفظ الجلالة قسرًا وقصدًا، لأن "أل" التي تلحق اسم الله اشتُهر فيها أنها للتعريف، وهي ليست كذلك، ولا نريد أيضًا أن يظنَّ أحدٌ أن العنوان يشير إلى أنها للتعريف.

أل التعريف في اللغة:

أكّد الكلام السابق أن "أل" التعريف بدأت حياتها لاهوتية، وأنها من الممكن أن تنفصل عن سياقها اللاهوتي، إذا وردت مع لفظة غير لفظ الجلالة "الله"، ولكنها ما تزال تفرض سيطرتها على المعاني والألفاظ؛ حتّى قيل: إن الكلام لا بد أن يكون إلهي الأصل(ثورلبي، 1997، 27)؛ لقد فرضت سيطرتها على "أل" التعريف اللغوية، وربما يكون هذا هو السبب في تسميتها، عند تصنيفها، بأل الشمسية وأل القمرية، ولكنّ هذا التصنيف يشتهر فيه الآن أنها جيء به لتسهيل تعليمِ "أل" التعريف بنوعيها على الناشئة، أمّا الحقيقة فربما تشير إلى أنه جاء بهدي من أعظم إلهين، عرفتهما الأساطير القديمة على الإطلاق؛ الشمس والقمر، اللذين نظر الإنسان القديم إليهما بصورة خاصة، "فقد توصّل بعقله يوم ذاك إلى أنه هو، وكل ما يحيط به، من فعل هذين الجرمين"(علي، 1993، 6/ 50)، وحرف اللام، كما نعلم، مختَلَف فيه؛ فهذا يشير إلى أنه حرف قمري، وذاك يؤكد أنه حرف شمسي، ولعل هذا الاختلاف يؤكّد أن لأل التعريف أصولًا لاهوتيَّة بارزة.

وتُستَخدَم "أل" في اللغة أداةً للتعريف، ولم تظلَّ حكرًا على لفظ الجلالة (الله)؛ بسبب تطوُّر علائق الإنسان بالعالم من حوله، ولذلك "لم يبق الإله "إيل" حسًّا متعاليًا بعيدًا منفصلًا عن يوميات الإنسان، بل نجده فرض تعاليه كعلاقة ذهنية تتجلى لنا من خلال استعمال اللغة بوجه خاص"(الحوراني، 1978، 173)، ولم تستغنِ اللغات المختلفة عن بادئة "أل" اللاهوتية، التي تشبه، من الناحية الشكلية، أل التعريف في اللغة العربية، وهذا التشابه يؤكد العلاقة بين البادئتين، وأن "أل" وصلت إلى اللغة العربية من المبدأ الديني القديم.

ولعلَّ ما يبرز التشابه بين البادئتين هو حرف اللام الذي تشتركان فيه، فاللام في "أل" اللغوية إنما هي اللام ذاتها في "أل" التي في الله، وفي هذا إجابة عن التساؤل الذي طرحه ابن جني: لِمَ جعلوا اللام للتعريف دون سائر الحروف؟ وهو رأى أنهم اختاروا اللام لأنَّهم بحثوا في الحروف كلها، "ولم يجدوا حرفًا أشد مشاركة لأكثر الحروف من اللام"(ابن جنّي، 2007، 2/ 29)، ووصلوا بذلك إلى إمكانية إدغامها فيما يقع بعدها، وهذا تفسير مناسب من ناحية صوتية، وإن كان يغفل عن أن اللام في "أل" وصلت إلى اللغة من "أل"، التي في الله، وهنا نعرف سبب جَعْلِ اللامِ للتعريف دون سائر الحروف.

واحتلت "أل" التعريف اللغوية مكانًا في بداية الكلمات، اقتداءً بأل اللاهوتية، وهذا ليس غريبًا؛ لأنها دخلت إلى اللغة بوساطتها، وقد ذهب بعض القدماء إلى أن العلة في وضعها في أول الكلمة "شدة اعتنائهم بها لاعتنائهم بمعناها الذي هو للتعريف"(المالقي، 1985، 161)، وأشار بعضهم إلى أنها لم تكن في آخر الكلمة خشية ضعف هذا الموقع وقابليته للتغيير، ولهذا جعلوها في موضع لا تضعف فيه، وهذا الموضع هو أوّل الكلمة(ابن جنّي، 2007، 2/ 31)، ولكن ربّما لم تأتِ في أول الكلمات، ولم تأتِ في وسطها، ولا في آخرها؛ لأنها اكتسبت قوَّتها من (أل)، التي احتلت مكانها في أوّل لفظ الجلالة، فاقتدت البادئة اللغوية بالبادئة التي في لفظ الله. ولهذا لمّا كانت همزة (أل) التي في لفظ الجلالة مقطوعة، فإنه كان ينبغي أن تكون كذلك في همزة أل اللغوية، "إلا أنه لما كثر استعمالهم لهذا الحرف عُرِف موضعه، فحذفت الهمزة، كما حذفوا لم أَكُ"(ابن جنّي، 2007، 2/ 17)، أي أنهم وصلوا الهمزة، فحذفوا همزة أل تخفيفًا -كما حذفوا نونَ كان في لم يكُ- فصارت بذلك همزة وصل على الإطلاق، واقتدوا في ذلك بلفظ الجلالة "الله" حين وصلوا همزته، وكان من حقها أن تقطع، ولكنهم وصلوها لكثرة استعمالها.

وعرض النحاة (المرادي، 1983، 192- 204؛ المالقي، 1985، 158- 165؛ ابن هشام، 2008، 68- 76؛ الأشموني، 1952، 82- 88) كل ما يتعلَّق بأل التعريف في اللغة العربية، ولم يتركوا صغيرة عنها، ولا كبيرة، إلا أوردوها وناقشوها، فإذا نظرنا في أقسام (أل) عندهم، فإننا نلمح تعاليها اللغوي في أذهانهم، فهي لم تعد منفصلة عن سياق حديثهم اليومي، بل أصبحت جزءًا من لغتهم، تحمله في

بدايتها، وتذبُّ عنه؛ لأنه غدا من ممتلكاتها التي تحرص عليها. وقد عني النحاة بأل التعريف في اللغة، ولهذا أوردوا لها أبوابًا مستقلة للحديث، وقسّموها إلى أقسام عدة؛ هي: أنها للتعريف، والماهيّة. ومنهم من رأى أنها للغلبة: كأل التي في "البيت"، إذا أطلقت على الكعبة المشرفة، وكالتي في "المدينة" إذا قُصد طيبةَ، وهنا باتت أل لازمة، وافتقدت معنى التعريف، ولا تحذف من الكلمة إلا في نداء، أو إضافة، أو نادر من الكلام، ومنهم من رأى أنها زائدة لازمةً أو غير لازمة(المرادي، 1983، 197؛ المالقي، 1985، 164)، وتكون أحيانًا عوضًا من الضمير(ابن هشام، 2008، 76) ، وتقع أحيانًا أخرى موصولة: وتكون كذلك إذا كانت بمعنى الذي وفروعه، وهي الداخلة على أسماء الفاعلين والمفعولين، ووردت موصولةً متّصلةً بظرف، أو بجملة اسمية أو فعلية في شواهد شعرية متناثرة في كتب النحو(ابن هشام، 2008، 69)، ولكنهم اختلفوا فيها إن كانت للتعريف أم لا (المرادي، 1983، 202).

والمتأمِّلُ أقسامَ (أل) التعريف في اللغة، يجد أنها لم تكن دائمًا للتعريف، وأنها أشبهت (أل) التي في لفظ الله في بعض الكلمات من جوانب محددة؛ فأل في التي والذي تشبه (أل) لفظ الجلالة في أنها لازمة، و"أل" في كلمة البيت، على سبيل المثال، تشبهها في أنها للغلبة؛ وهكذا نجد آثار أل الدينية ما تزال باقية في بعض الكلمات؛ لأن لها تأثيرًا قويًّا، لا يمكن لتلك الكلماتِ أن تتجاهله.

وينبغي أن نشير إلى العلاقة التي تجمع بين أل والتنوين؛ إذ إنهما لا يجتمعان في كلمة واحدة البتة، فهما متعاقبان، ولكن التنوين يمتنع في الأسماء الممنوعة من الصرف، وهذه الأسماء لا تصرف إلا إذا أضيفت أو عُرِّفت، أي أنها تصرف إذا لحقتها أل في أولها، أو إذا وقعت في أوّل الكلمة التي تليها، ولا يعني صرفُ الممنوع أنه سيقبل التنوين، وبهذا نؤكد أن حضور "أل" أقوى من حضور التنوين، ولعلّها استمدَّت قوتها من جذورها الدينية؛ لأن أل وصلت إلى العربية بوساطتها؛ وهناك علاقة تضاد بين (أل) والتنوين، فالأولى نقيض الثانية؛ لأن التنوين يدل على التنكير، في حين تدل "أل" على التعريف، في أغلب الأحيان، والتنوين لا يكون إلا في آخر الكلمة، أما (أل) فإنها لا تكون إلا في أولها.

النتائج:

اشتُقَّ لفظ الجلالة "الله" -لغويًّا- من صيغة "إله"، التي تعود -دينيًّا- إلى لفظ الإله الأعظم "إل"؛ وما يدعم ذلك أن "إل" واحد في اعتقاد القدماء، عبدوه ووحّدوه، أو ما يُسمّى بالآلهة في فكرهم ما هو إلّا صفاتٌ متنوِّعة مجسِّدة لألوهيَّته، وإن كان هناك بعض القوى التي أُلّهت، فموضعها في الإطار الوثني الخارج على الألوهة المطلقة.

وأكَّدَ التشابهَ بين "أل" التعريف والإله الأكبر "إل" حرف اللام الذي تشتركان فيه، فاللام في "أل" اللغوية إنما هي اللام ذاتها في "أل" التي في الله. واحتلت "أل" التعريف مكانًا في بداية الكلمات، اقتداءً بأل اللاهوتية؛ لكونها دخلت إلى اللغة بوساطتها، واكتسبت القوّة منها.

وتبيَّنَ أنَّ "أل" التعريف بدأت حياتها لاهوتية، ولكنَّها انفصلت عن سياقها اللاهوتي، حين اتَّصلت بألفاظ غير لفظ الجلالة "الله"، ولكنها مع ذلك احتفظت في تلك الألفاظ بما يدلُّ عليها.

الخلاصة

حينَ أعدنا "أل" التعريف إلى أصولها الدينية، تمكنّا من فهم صورتها الأولى، التي جاءت منها، وتعرفنا إلى كيفية وصولها إلى اللغة، فاسْتطَعْنا بعد ذلك أن نصل إلى نتائج مترابطة ذهنيًّا، ومُحقَّقةٍ واقعيًّا.

التوصيات

يوصي البحث بالعودة إلى الأصول الدينية والأسطورية، التي انبثقت منها الجذور العربية، وإعادة النظر فيما وصل إلينا من معانٍ عامة، في معجمات اللغة، وربطها بتلكم الأصول التي انبثقت منها؛ لكي نتمكن من فهم العربية، التي كانت، وما تزال، حارسة للتراث السامي؛ الدينيِّ واللغويِّ.

المصادر والمراجع:

- إبراهيم، نبيلة: الأسطورة، العدد 54 من الموسوعة الصغيرة، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، 1979.
- الأشموني، أبو الحسن نور الدين، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1952.
- الأندلسي، أبو حيان: تفسير البحر المحيط، ط2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1978.
- أولمان، ستيفن: دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1962.

- ثورلبي، أنطوني: اللغة والأسطورة، ترجمة: منيرة كروان، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1997.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان: سر صناعة الإعراب، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، وساعده في التحقيق: أحمد رشدي شحاتة عامر، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.
- جوردون، سيروس: أساطير العالم القديم(الأساطير الكنعانية)، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتب، 1974.
- الجوهري، إسماعيل بن حمّاد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، 1982.
- الحوت، محمود سليم: في طريق الميثولوجيا عند العرب، ط1، مطبعة دار الكتب، بيروت، 1955.
- الحوراني، يوسف: البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطيّ الآسيويّ القديم، دار النهار للنشر، بيروت، 1978.
- روكينغ، بوب: قاموس الآلهة والأساطير، تعريب محمد وحيد خياطة، دار مكتبة سومر، حلب، 1987.
- الزجاج، إبراهيم بن السَّري: معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، 1997.
- أبو السعود، محمد العمادي: كتاب تفسير العلامة أبي السعود، دار العصور للطبع والنشر، الظاهر-مصر، 1928.
- السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة، ط1، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1980.
- ــــ: الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، ط2، دار علاء الدين، دمشق، 2001.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان: الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1988.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل: المخصص، قدّم له: خليل إبراهيم جفّال، تحقيق: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1996.
- السيوطي، جلال الدين: الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق وتعليق: حمدي عبد الفتاح مصطفى خليل، ط1، سلسلة فتح الفتاح، 1999.
- ابن عقيل، القاضي بهاء الدين عبدالله: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، علق عليه وأعرب شواهده الشعرية:أحمد طعمه حلبي، دار المعرفة، بيروت.
- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، جامعة بغداد، 1993.
- الغول، عمر: أوجاريتيات، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، 1997.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد، بغداد، 1982.
- فريحة، أنيس: ملاحم وأساطير من أوغاريت، دار النهار للنشر، بيروت، 1980.
- فيروللو، شارل: أساطير بابل وكنعان، تعريب ماجد خير بك، مطبعة الكاتب العربي، 1990.
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب:القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط8، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2005.
- كاسيرر، آرنست: مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية، أو مقال في الإنسان، ترجمة إحسان عباس ومحمد نجم، دار الأندلس، بيروت، 1961.
- ــــ: اللغة والأسطورة، ترجمة سعيد الغانمي، دار كلمة، أبو ظبي، 2009.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، 1966.
- كنعان، جورجي: مفهوم الألوهة في الذهن العربي القديم، ط2، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، 1996.
- الماجدي، خزعل: الآلهة الكنعانية، ط1، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمّان، 1999.
- المالقيّ، أحمد بن عبد النور: رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، 1985.
- المرادي، الحسن بن قاسم: الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال: لسان العرب، ط6، دار صادر، بيروت، 1997.
- نيلسن، ديتلف: التاريخ العربي القديم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ترجمه فؤاد حسين علي، 1958.
- ابن هشام، جمال الدين بن أحمد: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: صلاح عبد العزيز علي السيد، ط2، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2008.